المبحث الأوَّل

الوحدَةُ السِّياسيَّة

الوحدة مطلبٌ بشريٌّ لكل أمة من الأمم لما تدرك البشريَّة بفطرتها وتجاربها من أثرها الإيجابي في قوَّتها وانتصاراتها وقدرتها على الاكتفاء بذاتها فيما ينوبها ، ولهذا نجد الأمم والدول تمجِّدُ ذكريات وحدتها وقادتها الذين يحقِّقون لها هذه الوحدة ، وبالمقابل نجد الدول الغالبة المستعمرة لشعوب أخرى تسعى إلى تفتيتها وبثِّ روح التنازع بين أجزائها وفق المثل البريطاني : « فرِّقْ تَسُدْ » وكما هو معلومٌ تاريخياً أنَّ الأمة الإسلاميَّة -والعربيَّة بالذات- قد آل أمرها في هذا العصر إلى التفرُّق والشتات والتناحر ، ومن ثمَّ الفشل وذهاب الريح .

وقد بُذلتْ جهودٌ متعددةٌ فكريةً وسياسيةً تتغنَّى بالوحدة وتنادي بها ، وتجعلها هدف الأمة بعد الاستقلال ولكنها ذهبتْ هباءً منثوراً .

محاولةٌ واحدةٌ متميِّزةٌ في مسارها ومن ثمَّ في نتائجها ، استطاعتْ أن تحقق وحدةً نموذجيَّةً في مجتمعٍ كبيرِ المساحة متعدِّد الأقاليم ، وهي الوحدة التي أقامها الملك عبد العزيز - رحمه الله - في القرن العشرين في جزيرة العرب .

« فعندما وافته المنيَّة ترك الملك ابن سعود الذي أطلق عليه البريطانيُّون اسم « نابليون العرب » ترك لابنه مملكةً مساحتها تقابل نصف أوربا، وتعد ثالث بلد منتج للنفط في العالم، والزعيمة الروحيَّة للعالم العربي ، موكبٌ مدهشٌ استمرَّ نصف قرن ، وملحمةٌ أكثر غرابةً من أي قصَّة من قصص الفروسيَّة صاغتْ هذه المعجزة في منتصف القرن العشرين ، أنشأ الملك ابن سعود -بعملٍ أقرب ما يكون لعمل السحر- أمَّةً جديدةً من الرمال »[1] .

(١) الكلام لـ « موريس جارنو » ، الملك عبد العزيز - رؤية عالميَّة ، ص ٢٤٣ .

والسبب الأول والأساس في فشل الجهود الوحدويَّة القوميَّة والاشتراكيَّة ونحوها ونجاح الوحدة في المملكة العربيَّة السعوديَّة في تأليفها المجتمع السعودي وكونها عنصر تأليف وجمع للمسلمين والعرب ، هو ما نحن بصدده في حديثنا عن آثار تطبيق شريعة الإسلام في الحياة .

فإنَّ الأمم عموماً قد تجتمع على عنصر أو أكثر من العناصر الأرضيَّة ، كالقوميَّة والوطنيَّة والعنصريَّة واللغة . . . لكنَّها عناصر إذا لم تضبط توجُّهها هداية الدين الحق فإنه تكون شرّاً على أهلها ونِقمةً على الأمم الأخرى من حولها .

« لقد جَرَّتْ -كما يقول المودودي - هذه العناصر كوارث هائلة على الإنسانيَّة ، ووزَّعتْ العالم الإنساني إلى مئات وآلاف من الأجزاء ، وكلُّ جزء من هذه الأجزاء يمكن إفناؤه ولكن لا يمكن تحويله إلى غيره ، لا يمكن أن يبدل جنسٌ بجنس غيره ، ولا وطنٌ بوطن غيره ، ولا لونٌ بلون غيره ولا دولةٌ بدولة غيرها ، ولا أن يتكلم أهل لغة بلغة غيرها ، ولا أن تصير المصالح الاقتصاديَّة لأمة مصالح لأمة غيرها بعينها . . . فالنتيجة اللازمة لكل ذلك أن القوميَّات التي تقوم على هذه الأسس لا سبيل إلى التوفيق بينها بأيِّ حال من الأحوال ، وهي على الدوام متحاربةٌ بينها لأجل ما في نفوس أهلها من العصبيَّة ، وتحاول كل واحدة منها أن تقضي على غيرها ، ولا تنتهي هذه الحرب بينها إلا بفنائها كلها لتقوم على هذه الأسس نفسها قوميات جديدةٌ ، وتثير في الأرض مثل ما أثارت هي من الويلات والقلاقل والاضطرابات ، وهذا مصدرٌ أبديٌّ للفساد والشر يتهدَّد أمن الأرض وسلامها »[1] .

---

(١) بين القوميَّة والإسلام ، ضمن كتاب طائفة من قضايا الأمة الإسلاميَّة ، أبو الأعلى المودودي ، ص ١٢ ، ١٤٠٣هـ ، الرياض .

أمَّا في عالمنا الإسلامي والعربي بالدرجة الأولى فقد كان تبنِّي العلمانيَّة بما أحدثتْ من عداء للإسلام الذي هو هويَّة المجتمع العربي والإسلامي ، ومن تغريب فكريٍّ وسياسيٍّ ، وما تلبَّستْ به من روح تقليديَّة استهلاكيَّة لما عند الآخرين -كانت هذه العلمانيَّة بما تمظهرتْ به من قوميَّة أو اشتراكيَّة أو غيرها- مصدراً للتفريق والتناحر في المجتمع الواحد ، وبين النظم المتجاورة ، لقد خلقتْ ألواناً من العداء التعصبي المقيت بين الناس ، أي أنها انقلبتْ بضدِّ ما كان يهدف إليه الداعون إليها ، إذ كانوا يتصوَّرون أنها ستحقِّق الالتقاء بين الجميع من مختلف الطوائف والأعراق بعيداً عن التعصب والتشرذم ، مستندين على تجربتها لدى الغرب دون اعتبار للفروق بين الوضعيَّتين الغربيَّة والإسلاميَّة .

يقول برهان غليون : « إنَّ عقيدة العلمانيَّة التي كانت أداةً أساسيَّةً لخلق الإجماع السِّياسي في الغرب بقدر ما فتحتْ ساحةً علميَّةً تلتقي فيها كل المذاهب والآراء ، قد تحوَّلتْ - في العالم العربي- إلى طرف إضافيٍّ في الصراع العقائدي، وتحوَّلتْ بالتالي إلى مصدر جديد لتوليد الخلاف وتعميق الانقسام والتقسيم الفكري والسياسي »(١) .

أمَّا الوحدة السياسية التي حققتْ جمع الشمل وارتباط القلوب ونجحتْ فيما أخفقتْ فيه التجارب الأخرى وهي وحدة أقاليم الجزيرة التي أقامها الملك عبد العزيز فإنها قامت على أسس متينة مناسبة للبيئة التي زرع فيها هذه الوحدة ، ومن ثمَّ سقاها فأثمرتْ وأينعتْ .

- **إنَّ أهمَّ أُسس الوحدة بين المسلمين هي العقيدة الإسلاميَّة** ؛ لأنها توحِّد

(١) نقد السياسة - الدولة والدين ، ص ٤٢١ .

وجْهة الناس كلِّهم إلى الله دون سواه فتكون مسيرتهم جميعاً -فكراً ومشاعرَ وحركةً- متناغمةً متوافقةً، ولقد قرن سبحانه العبوديَّة له وحده بوحدة الأمة المسلمة فقال تعالى : ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[1] . وقد ارتكزتْ عليها المملكة بصورتها الصَّافية الصحيحة وفق منهج السلف الصالح[2]، وحاربتْ ما يشوش هذا الأساس مما يفرق القلوب ويزرع الشقاق الديني والفكري من ألوان الشرك والابتداع الذي به يتحوَّل الدين إلى أديان والأمة إلى أمم متشاكسة .

وقد وصف الله أهل الكفر بالتفرق والتمزق بسبب التفرق الديني وتعدد الولاءات، يقول سبحانه : ﴿**وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾[3] كما حاربتْ المبادئ الهدَّامة التي ما دخلتْ مجتمعاً إلا فرَّقتْ أهله وأثارتْ الصراع والفتنة بينهم كالماسونيَّة والشيوعيَّة والروحية .

- ومن الأسس -وهو قضية عقديَّة أيضاً-: **تحكيم الشريعة والاحتكام إليها** حيث تنسجم وجهة الدولة التشريعيَّة مع قاعدة الشعب الإيمانيَّة ، وهي إفراد الله وحده بالعبادة والتشريع .

- ومن الأسس : **وحدة السلوك** ، سواءٌ كان في مجال التعبد وأداء الشعائر صلاةً وصياماً وزكاةً وحجّاً، أو في مجال الأخلاق والحقوق المتبادلة بين الناس ، بين الراعي والرعية ، وبين الناس كلهم .

---

(١) الآية رقم (٩٢) من سورة الأنبياء .

(٢) من الأناشيد التي كنا ننشدها صغاراً :

رباط العقيدة يجمعنا ... ويذكي بنا عزة المسلم

ولا شيء يجمعنا غيره ... ولسنا إلى غيره ننتمي

(٣) الآيتان (٣١-٣٢) من سورة الروم .

على هذه الأسس وما انبثق عنها من تطبيقات قامتْ وحدة المملكة العربية بصورة متماسكة كتماسك شخصيَّة موحِّدها الملك عبد العزيز رحمه الله ، ولقد صمدتْ هذه الوحدة أمام أخطار التشرذم والتبعيَّات التي كانتْ تتوزَّع عليها الأحزاب في الدول الأخرى ؛ بل إنها لمتانة غرسها الإيماني والإنساني صارتْ تزداد تلاحماً كلما تقدَّم الزمن ، وهو أيضاً ما أثار إعجاب المتأمِّلين ولفت أنظارهم : « فإنَّ الشيء الذي لا ينفك عن لفت أنظار المراقبين لمسرح السياسة في الشرق الأوسط والعالم الثالث عموماً هو استقرار المملكة العربيَّة السعوديَّة بكل أجهزتها وتراكيبها السياسية والاقتصاديَّة والقضائيَّة ، ويلفت هذا الاستقرار أنظار المراقبين بصفة خاصة من حيث استمراريَّة وحدة البلاد ولا سيما عندما نقارن هذه الوحدة بما عرفتْ به الجزيرة العربيَّة منذ سقوط الخلافة الإسلاميَّة حتى الآن من تشرذم وتجزئة واضطرابات قبليَّة وطائفيَّة لم تهدأ على حال حتى تمَّ قيام المملكة العربيَّة السعوديَّة ، وبإقامتها عمَّ الهدوء والسكينة عبر جبال المملكة ووديانها ، هضابها وسهولها ، وصحاريها وحواضرها ، قراها ومدنها .

ظلَّتْ المملكة العربيَّة السعوديَّة الدولة الوحيدة تقريباً في العالم الثالث التي لم تتعرَّض وحدتها إلى التهشُّم أو يشكِّك بها أحدٌ ، إنها ظاهرةٌ نادرةٌ تماماً إن دلَّت على شيء فعلى حكمة شعبها من ناحية وصواب سياسة حكومتها من ناحيةٍ أخرى ، وكأننا بالملك عبد العزيز – رحمه الله – قد أحسَّ في أعماق نفسه في صيف عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م) أنه موشكٌ على القيام بخطوة تاريخيَّة حاسمة ستكون لها دلالتها الكبرى ، وذلك بإعلانه تسمية « المملكة العربيَّة السعوديَّة » .

ودخلتْ هذه الوحدة الوطنيَّة في شتى الامتحانات والتجارب القاسية وخرجتْ في كلِّ مرَّة أقوى وأصلب مما كانتْ عليه ، فقد عاش أهلها أيام الفاقة والحاجة وأيام الغنى والنفط ، وتظلَّلوا بظلال السلام مثلما تظلَّلوا بسحب الحرب وقريع طبولها ، مَرُّوا بمصاعب الحرب العالميَّة الثانية وتهديدات الغريب والقريب ، من حروب فلسطين إلى حروب الخليج رقم واحد ورقم اثنين .

وفي كل مرة كان شعب المملكة يسارع للالتفاف حول علمه وملكه ، مدركاً أهمية هذا الالتفاف لاستمرار هذه التجربة العربيَّة الإسلاميَّة الفريدة ، وأظهرتْ هذه الوحدة الوطنيَّة أهميَّتها لا بالنسبة لأبناء المملكة وحسب ، بل وأيضاً بالنسبة لسائر العرب والمسلمين »[1] .

أجل فلم تكن وحدة المملكة حزبيَّةً وطنيَّةً تتقوقع على ذاتها منافرةً للآخرين من حولها .

إنَّ الأساس الإسلامي لها وإنَّ الأريحيَّة العربيَّة التي أشيدتْ عليها قد جعلاها تفيض وداً وقرباً من العرب والمسلمين عموماً ، وتواصلاً معهم وولاء لهم ، والملك عبد العزيز نفسه النموذج الأبرز في هذا المجال طيلة عمره ثم بعده سياسة الدولة عموماً .

لقد جعل الملك عبد العزيز قضيَّته مع العالم لا مرتبطة بمصلحة ملكه أو شعبه فقط ، وإنما مصلحة أمته الإسلاميَّة في كل شعوبها في البلاد الإسلاميَّة أو في البلاد غير الإسلاميَّة . وقد بلور هذا في خطابه الذي ألقاه في جدَّة عام (١٩٢٦م) : « . . ثم إنَّ لنا على الدول حقّاً فوق هذا كلِّه وهو أهم شيء يهمنا مراعاته ، وذلك أنَّ لنا في الديار النائية والقاصية إخواناً من المسلمين والعرب

(١) الكلام للصحفي العراقي خالد القشطيني ، صحيفة الشرق الأوسط ٢٣/ ٩/ ١٩٩١م .

نطلب مراعاتهم وحفظ حقوقهم ، ولي الأمل الوطيد في أنَّ الحكومات المحترمة ذات العلاقة بالبلاد الإسلاميَّة والعربيَّة لا تدَّخر وسعاً في أداء ما للعرب والمسلمين من الحقوق المشروعة في بلادهم »[1] .

أمَّا الوحدة العربيَّة التي حاول بعض القوميِّين إنكار دور المملكة في دعمها بحجَّة أنها دولةٌ تقوم على الدين ، والدين منافرٌ للقوميَّة ، فهو إذن مناقضٌ للوحدة ، فإنَّ الحقيقة التي يثبتها تاريخ المملكة أنها أخلص الدول لها وأكثرها دعماً ، وسعياً لإقامتها على الأسس السَّليمة ، أي على الدين الجامع للقلوب .

حينما تمَّ توقيع معاهدة الصداقة بين المملكة واليمن عام (١٩٣٤م) بالطائف هنَّأ ملك العراق « غازي » الملك عبد العزيز على هذه المعاهدة ، وقد ردَّ الملك عبد العزيز على «غازي» مبيِّناً أنه يسعى ليتحقَّق هذا الإخاء بين جميع العرب ، وهذا كلامه :

« إنَّ هذه الصداقة وهذا الإخاء كانا وسيكونان دائماً الهدف الذي نسعى جهدنا لتحقيقه بين جميع العرب ، من أجل مصالح دينهم أوّلاً ، ومن أجل رفاهيتهم المشتركة أخيراً . وسيكون هذا الهدف هدفنا ، وآمل أن تقوم جلالتك وسائر زعماء العرب بدعمي لتحقيقه»[2] .

أما الجامعة العربيَّة التي برزتْ كرمز للوحدة العربيَّة فإنها انبثقتْ من خلال خطاب ألقاه وزير خارجيَّة بريطانيا عام (١٩٤٣م) وهو " أنطوني أيدن " داعياً إلى حركة تحقق الوحدة العربيَّة في المجالات الاقتصادية والسياسيَّة والثقافيَّة ، وتبناها رئيس وزراء مصر آنذاك ودعا إليها ، وكانتْ مصر آنذاك

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٢٣ .

(٢) الملك عبد العزيز ابن سعود والوحدة العربية ، لأحمد طربين ص ٨ ، من بحوث المؤتمر العالمي للملك عبد العزيز ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٥هـ .

تحت الاستعمار البريطاني، ولم تكن الحرب العالميَّة الثانية قد انتهتْ ، لذا كان ردُّ الملك عبد العزيز أنه « لا يرى إمكان القيام بأي عملٍ ما دامت الظروف الحاضرة قائمةً » .

ويرى المحلِّلون أنَّ الملك عبد العزيز كان يخشى أن تصبح هذه الجامعة إذا أنشئتْ في ظل توجيه الاستعمار وتحكُّمه مجرَّد منبرٍ لخدمة السياسة البريطانيَّة .

ولهذا حينما أراد التوقيع على ميثاق هذه الجامعة بعد لقائه بالملك فاروق اشترط كما يقول صاحب بحث " الملك عبد العزيز والوحدة العربيَّة " : « أن يسند منصب أمينها العام إلى عبد الرحمن عزَّام حتى نضمن أن تكون الجامعة في خدمة العرب ولا تسير في ركاب السياسة البريطانيَّة »[1] .

أمَّا التضامن الإسلامي ولمُّ شعث المسلمين قيادات وشعوباً فقد كان همَّ المملكة ، وقد حمل لواء هذا التضامن الملك فيصل – رحمه الله – ونادى به في العالم الإسلامي ، فاستجاب له عقلاء من القيادات السياسيَّة وأيَّده العلماء وقادة الدَّعوة الإسلاميَّة ودعوا حكوماتهم للاستجابة لدعوته[2] .

وقد أنشئتْ منظمة المؤتمر الإسلامي كما أنشئتْ رابطة العالم الإسلامي التي سبق الحديث عنها ، والمملكة بحكم موقعها المتميِّز وخدمتها لضيوف الرحمن القادمين بمئات الآلاف كل سنة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج تبذل جهدها لجمع المسلمين والتأليف بينهم ، ولها أيادٍ بيضاء في هذا المجال لا تنكر .

وأخيراً فإنَّ من أهمِّ ما نؤكِّد عليه بشأن الوحدة التي تبلورتْ في المجتمع السعودي بصفتها أثراً من آثار التزامه بالإسلام هو روحها التي ظلَّتْ تعمرها

---

(١) الملك عبد العزيز الوحدة العربية ، ص ١٨ .

(٢) انظر : التضامن الإسلامي ، لأبي الأعلى المودودي .

منذ أقامها الملك عبد العزيز وحتى الآن ، والتي تمثل عنصر نجاحها وهي الإيمان ؛ الإيمان بالله ، وبالأخوة الإسلاميَّة، وبالحكم بشرع الله في كل الشؤون ، هذه الروح هي الخيار الذي وفق الله الملك عبد العزيز لاعتماده دون سواه ، وبه تحقَّقتْ لهذه الوحدة مكانتها المتميِّزة إسلاميّاً وعربيّاً وعالميّاً .

« فبهذا الخيار -يقول زين العابدين الركابي- غدت الوطنيَّة ذات منهجٍ واضحٍ إلى درجة التألق ، منهج العقيدة والشريعة والرصيد الصحي من كريم التراث وسوابق التاريخ والحضارة .

وبهذا الخيار ، تمكَّن الإسلام في الأرض، أي في وطن أو إقليم حرٍّ السيادة والقيادة ينتظم جماعةً بشريَّةً ترضى الإسلام وتصطفُّ خلف القيادة بمحبَّة غامرة ووحدة جامعة، وتعتزُّ بالوطن اعتزازاً عاماً مثيلاً لاعتزاز سائر البشرِ بأوطانهم فطرةً وغريزةً، واعتزازاً خاصّاً بموجب أن هذا الوطن نسيج وحده، إذ اختار الله أرضه موئلاً لبيته الحرام، واختار لسانه لغةً لآخر كتبه، وابتعث من بنيه خاتم الأنبياء والمرسلين .

هذه هي « مكانة » وحدة الملك عبد العزيز في منهج الإسلام .

أمَّا مكانتها العربيَّة المجرَّدة فقد حظيتْ باحتفاء لافت ، فمن المعروف أن "ساطع الحصري" -مثلاً- لم يكن يؤمن بقيام الدولً على أساسٍ دينيٍّ ، ومع ذلك فقد احتفى بإنجاز الملك عبد العزيز في هذا المجال بمقياس العروبة المجرَّدة أو بمعيار « الحمية العربيَّة »، وخير الإنجازات : إنجازٌ يتفق عليه أقوامٌ مختلفو البواعث والرؤى والغايات والمعايير .

وبالمقياس التاريخي السياسي العالمي تتبوَّأ وحدة الملك عبد العزيز مقاماً عَلِيّاً .

فإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد ثلاث وحدات استرعتْ انتباه علماء ومفكِّريْ التاريخ السياسي وهي :

١- وحدة إيطاليا التي جمعت إيطاليا -بعد شتات وتفتُّت- على يد ثلاثة رجال بارزين في التاريخ الإيطالي وهم : "غاريبالديٍ" ، "وجيوس ماتزينيٍ" ، و"كافور" .

٢- وحدة ألمانيا التي أنهتْ فوضى الدويلات (أكثر من ثلاثمائة دويلة ألمانيَّة) وقد لمع اسم « بسمارك » في هذا الميدان فلا تكاد تذكر وحدة ألمانيا حتى يذكر هذا الرجل .

٣- عودة الوحدة الأمريكية ، فلقد اندلعتْ حربٌ أهليَّةٌ طاحنةٌ بين الولايات الجنوبيَّة والولايات الشماليَّة ، وهي حربٌ هدَّدتْ وحدة أمريكا في الصميم ، وهنالك برز " إبراهام لنكلن " فأرجع الولايات الجنوبيَّة الثائرة إلى الوحدة .

إذا كان القرن التاسع عشر قد شهد هذه الوحدات التي ظفرتْ باهتمام المؤرِّخين ، فإن القرن العشرين والتاريخ الإنساني قد شهدا وحدةً كبرى في جزيرة العرب ، وهي الوحدة التي أسسها وأتمها ملكٌ عربيٌّ الأرومة ، مسلم الاعتقاد والمنهج والوجهة هو الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله . . . وبهذا إذْ حقق هذا الملك المصلح واجباً عظيماً من واجبات الإمام المسلم وهو إقامة وحدة الجماعة المسلمة [في مملكته] وترسيخها والحفاظ عليها ، فإنه أضاف -في الوقت نفسه- إلى السجلِّ العالمي للتاريخ الإنساني فصلاً مجيداً في سياق الوحدة الكبرى للأمم ، مع ملاحظة ضعف إمكانات الملك عبد العزيز بالمقارنة إلى الإمكانات التي كان يملكها "كافور" الإيطالي ، و"بسمارك" الألماني ، و"لنكلن" الأمريكي »[1] .

---

(١) وحدة الملك عبد العزيز بالمقياس الإسلامي والعربي والعالمي ، الركابي ، مجلة اليمامة ، عدد (١٥٢٤) في ٢٨/ ٥/ ١٤١٩هـ ، ص ٣٠ .